صفوة الرجال

علي مصطفى مشرّفة باشا

في عام أو يزيد قليلاً ، رزئت مصر في عالمين كبيرين من أعلامها الأفذاذ هما الدكتور حسن صادق باشا العالم الجيولوجي المشهور ، والدكتور علي مصطفى مشرفة باشا العالم المرموق في شؤون الذرّة وشطر نواتها والطاقة المنبعثة منها والقوة المدّخرة فيها .

المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا

ومن عجائب الاتفاق ، أن هذين القطبين الكبيرين لقيا ربهما على حين فجأة أثر هبوط في القلب . فكانت الخسارة في فقدهما أكبر من أن تعوّضها الأيام .

علي مصطفى مشرفة ، يقترن اسمه باسم كلية العلوم في القاهرة ، فقد كان أستاذاً فيها ،

ثم عميداً لها، ثم رئيساً لجامعة فؤاد بالنيابة أيّام زار مصر عاهل الجزيرة العربية. وفي مختبرات هذه الكلية أجرى تجاربه، وعلى طلابها ألقى محاضراته، وفي أثنائها ناقش نظرياته، ووقف حياته على العلم يعمل لترقيته في دأب وإصرار، ويتابع النشاط العلمي في الخارج عن كثب، ويواليه بالرأي آناً والفتوى آناً حتى كان علي مصطفى مشرفة مرجعاً من المراجع الأصيلة التي أشار إليها في مباحثه أئمة علماء العالم مثل السر جيمس جينز والسر أوليفر لودج وحتى استعانت به جامعة برنستن الأميركية — التي تعدّ الأولى بين جامعات الولايات المتحدة — ليحاضر على طلابها كأستاذٍ زائر دوليّ الثقافة فريد العرفان.

وفضل الدكتور علي مصطفى مشرفة لا يقتصر على خدمة العلم في دوائره الضيقة، وفي معامله الموصدة الأبواب، وفي أحرامه المصونة، بل يمتدّ فضله فيشمل القارئين عامّة والسامعين جملة، لأن مشرفة باشا مبسّط للعلم، خاصة لشوكته، يكتب بأسلوب لا يرتفع إلى التكلف العسير المأتى ولا ينخفض إلى الركاكة المبتذلة، يعبّر عن المعنى العلمي الدقيق من أقصر الطرق كأنه رياضيٌّ يدرك أن الخط المستقيم أقصر من الخط المنحني. ومن مؤلفاته الشعبية — وفرقٌ كبيرٌ بين الشعبية والسوقية — كتاب « مطالعات علمية »، وكتاب « الذرّة والقنابل الذرية »، وكتاب « نحن والعلم » عدا عشرات من المحاضرات رددها من المنابر العامّة، وعدا مئات من الأحاديث طيّرها اللاسلكي من القاهرة لنشر أنوية العلم خفّاقة عالية.

والدكتور مشرفة من الدعائم التي استندت إليها بضع من الهيئات العلمية العاملة في مصر، وهو من المراجع التي كانت تستفتيها الجامعات والمجامع الأجنبية في شؤون العلم. فهو من مؤسسي المجمع المصري للثقافة العلمية الذي يمثل من عشرين عاماً على إشاعة الثقافة العلمية في أوسع نطاق، ولو أنصف المنصفون لوجدوا في الدكتور مشرفة عضواً عاملاً لا ضريب له في مجمع فؤاد الأول للغة العربية، ولكن مما يدعو إلى الأسف والأسى أنه ظلّ مقصيّاً عن هذا المجمع أسوة بالمغفور لهما خليل مطران بك واسماعيل النشاشيبي.

وفي اعتقادي أن ضمّ عالمٍ إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية أجدى على الضاد وعلى المجمع وعلى الحركة الأدبية والعلمية في الشرق عامّة، من ضمّ فقيه في اللغة مفتقرٍ إلى

ثقافات غربية واسعة . ولو قيل إن عضوية المجمع مقتصرة على بضع عشرات من الأعضاء ، لقلنا : ولِمَ لا يزاد عددهم لأن المقصود بالمجمع أن يضمّ أقطاب الفكر ، فإذا زاد عددهم زاد بالتالي عدد أعضاء هذه المنشأة الكبيرة .

طوبت إذن صفحة الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا بعد جهاد كان نعم الجهاد ، وبعد بلاء في ميدان العلم يُسرك به من بلاء .

طوبت صفحة عالم يدرك أن الانسان مهما دانت له سلطات الطبيعة ، ومهما أسلمت له قوى المجهول قيادها ، ومهما ارتقى في مراتب الجاه والمعرفة والشهرة ، يجب أن يظل مبقيًا على بساطة النفس وسماحة القلب ووداعة الروح وطيب العشرة . فالكبرياء ليست من شيم العلماء ، والاستعلاء بعيد عن حظيرة المشتغلين بالعلم .

طوبت صفحة علي مصطفى مشرفة الذي كان لمصر عنوان نهضة في الخارج ، وكان لبلاده شرفاً تعتز به في حلبات الرأي العلمي ، وكان لنا رائداً شق طرقاً علمية غير معبدة وأطلعنا على أبواب للعرفان جديدة .

طوبت صفحة تميد العلم وركنه الركين في وادٍ للنيل خصيب .

طوبت صفحة رجل يقارع علماء الغرب ويصارعهم ، يصاول أصحاب النظريات العلمية المستحدثة ويطاولهم ، يوزن كلامه بميزان الذهب لأنه لا يقول إلاّ ما يجدي وينفع .

فالخسارة في مشرفة باشا خسارة فيهات أن يخفف من وقعها العزاء ، ولا سيما لأنها جاءت بعد وفاة صديقه وخلّه الدكتور حسن صادق باشا . فقد آن للعقل المثقل بالمعرفة أن يطرح عنه عبء الاجتهاد ، وآن للذهن الحاضر أن يهدأ بعد كلال ، وآن للرجل الذي عرف أسرار الكون أن يعرف سرّ المنيّة ، ولكن للمرء أن يبلغ مبغاه .

في فقده يصدق قول مطران :

برغم المنى ذاك الختام المحبَّر ... كتابك تطويه ومنعاك يُنشر
دهاك الردى في الزائحين فراعنا ... كأنك غادٍ في الصبى فتكرّ
يراعك في اليمنى وذهنك حاضرٌ ... وعزمك ذاك العزم ، والعود أنضر
أعن سبق إحساس بما كان مضمراً ... زمانك آثرت النوى حين تؤثر ؟

وديع فلسطين